شاطىء الاكتشافات الكيماوية وبحرها الواسع منبسط امامهُ الى ما لا نهاية لهُ فما ادرانا انهُ لا يصنع غدًا السكّر والزيت والحرير ويركّب من جماد الارض مركبات تغنيهِ عن الحبوب وما للحيوم فيكفي نفسهُ مؤونة حرث الارض وزرعها وتربية المواشي وتسويها ويصير السلطان للعقل لا للذراع

تولّد اللغات ونموها

النبذة الخامسة - في اشتقاق اللغات بعضها من بعض

ابنّا في النُّبَذ التي ادرجناها في هذا الموضوع في المجلد العاشر من المقتطف ان اللغة لا تتولّد مع الانسان بل يتعلّمها من الذين يربّى بينهم ولكنهُ لا يقتصر على ما يتعلمهُ بل يتصرّف فيهِ بعض التصرّف بين تغيير وزيادة ونقصان. والآن نقول ان كل تغيّر حدث في اللغة احدثهُ اولاً شخص او اشخاص ثم عُرِض على الجمهور فقبلوهُ حالاً وهذا نادر او قاوموهُ وهذا هو الاكثر. والمقاومة إما ان تفضي الى رفضهِ والغائهِ او الى قبولهِ واستعمالهِ. ولنا في الحاضر دليل على الماضي لان في كل لغة من اللغات كلمات شابها بعض التحريف او التغيير وكلمات موضوعة وكلمات مهجورة وكلمات مدخلة من لغات اجنبية. وهذه الكلمات كلها معروضة الآن على الجمهور فإمّا ان يُثبتها فتثبت واما ان ينفيها فتُنفى. وقس على ذلك الاصطلاحات والتراكيب المخالفة لوضع اللغة ومألوفها

واذا امعنّا النظر رأينا ان لكل احدٍ لغةً خاصّةً بهِ تختلف عن لغة غيرهِ من ابناء جلدتهِ بل من ابناء عشيرتهِ وذلك لا يحصر في النطق بل يتناول الانشاء ايضًا حتى انهُ كثيرًا ما يُعرَف الكاتب بانشائهِ. واسباب هذا الاختلاف بين الناس كثيرة اشهرها الفطرة والتربية وطرق التعليم وانواع الاعمال. وقد تقدّم ان الناس يقلّد بعضهم بعضًا فاذا انفردت عشيرة في جهة من الارض وطال عليها الزمان وهي مستقلّة بنفسها منفصلة عن كل العشائر تقلّد اعضاؤها بعضهم بعضًا في ما يمتازون بهِ عن غيرهم فيرسخ ذلك في لغتهم ويصير لهجةً خاصة بهم. ترى ذلك واضحًا في البلدان المنفردة ولاسيما في مدن سورية فالدمشقي لهجتهُ غير لهجة البيروتي وهذا لهجتهُ غير لهجة الطرابلسي وهذا غير لهجة الصيداوي وهلمّ جرًّا. بل ان لهجة اهل القرية الواحدة تختلف عن لهجة اهل القرية الأخرى ولاسيّما في جبل لبنان حيث الحروب الاهلية قد فرّقت بين الاهالي في الازمنة القديمة واسباب المعيشة ميسورة لكل فريق منهم فلا يضطرون الى الاختلاط الكثير. وهذا الفرق بين لهجاتهم واضح للوطني اشد الوضوح ولو كان غير واضح للاجنبي

والتغيُّرات المذكورة آنفاً لا تشق اللغة الى لغات مختلفة ما دامت ضمن حد اللهجة اي ما دام اهل اللهجة الواحدة يفهمون اهل اللهجة الاخرى واما اذا زاد البعد بين اللهجات حتى لم يعد اهل اللهجة الواحدة يفهمون اللهجة الاخرى الاَّ اذا تعلموها تعلُّماً صارت اللهجتان لغتين مختلفتين كما حدث في فروع اللغة الجرمانية واللاتينية التي كان كلٌّ منها لهجة فزاد البعد بينها وبين اخواتها حتى صارت لغةً مستقلة

وتفصيل ذلك ان اللغة الجرمانيَّة تنزَّعت فروعاً كثيرة في ايام جاهليتها ولبثت هذه الفروع تباعد وتتباين حتى القرن السادس عشر للميلاد وحينئذٍ حدث في جرمانيا من الحوادث الدينية والسياسية ما عزَّز فرعاً من هذه الفروع وهو الفرع الذي تُرجِمت فيهِ التوراة فصار لغة رجال السياسة ورجال الديانة وانتشرت فيهِ العلوم والمعارف فتغلَّب على بقيَّة الفروع التي في بلاد جرمانيا. واذا بقي التمدُّن الجرماني جارياً مجراهُ تلاشت تلك الفروع وقام هذا الفرع مقامها كلها. وقبل ان تعزَّز هذا الفرع كان قد ابتعد عن الاصل فرعان آخران وهما الفرع الانكليزي والفرع الهولندي فقوي كلٌّ منهما وصار لغةً قائمة بنفسها حتى ان الفرع الانكليزي انتشر اكثر من انتشار الجرماني ونازعهُ السيادة في ديوان العلوم والمعارف . وانشقَّ من الاصل الجرماني فروع أُخرى قبل ذلك او بعدهُ كالفرع الاسوجي والايسلندي ونحوهما . وحدث كل ذلك في ازمنة غير بعيدة ولو لم نرَ عليهِ دليلاً في التاريخ لاستدللنا عليهِ ممَّا في هذه اللغات من المشابهة لان المشابهة بين اللغات إمَّا ان تكون جوهرية وهي في ما اذا كانت في الكلمات الضرورية بمثل الاب والام والاخ والاخت والضمائر وملحقات الافعال ما يندر ان يستعيرهُ الناس بعضهم من بعضهم ولا يُعقَل اتفاقهُ كلهُ بتوارد الخواطر لكثرتهِ . وإمَّا ان تكون عرضية وهي في ما اذا كانت في اسماء العلوم والفنون وبعض النباتات والحيوانات مما يقتبسهُ الناس بعضهم من بعض غالباً او لا يستغرب ورود بعضهِ في لغتين مختلفتين بتوارد الخواطر لندرتهِ

مثال هذه المشابهة بين اللغات الجرمانية الاصل كلمة "اخ" فانها في الجرمانية الجارية الآن (bruder) وفي الانكليزية (brother) وفي الهولندية (broder) وفي الايسلندية (brodher) وفي الاسوجية (broder)

واللغة اللاتينية انتشرت في جهات اوربا وكانت قد انقسمت الى قسمين لغة الكتابة ولغة التكلُّم كما سيأتي بيانهُ في الكلام على اللغة العربية فتعلَّم اهالي فرنسا لغة الكتابة وابقوها على حالها لانها مربوطة بضوابط وروابط وكتب بليغة لا يسهل الخروج عنها وتعلموا ايضاً لغة التكلم واستعملوها ومزجوها بلغتهم الاصلية وتصرفوا فيها اذ لا ضابط يضبطها ولا رابط يربطها وليس

فيها كتب تحفظها فتولدت منها اللغة الفرنسوية وكذا فعل الاسبانيون والبرتوغاليون وسكان ايطاليا من الايطاليين وغيرهم . وآثار هذا التغيير ظاهرة في اللغات المشتقة من اللاتينية فكلمة اخ في اللاتينية frater فتخففت في الفرنسوية وصارت frère وفي الاسبانية fray وفي الايطالية frate او fra ولكن الكلمة الاسبانية والايطالية تخصصتا بالاخ الديني ولذلك صغّرها الايطاليون للدلالة على الاخ باطلاقه وقالوا فراتلو واخذ الاسبانيون كلمة أُخرى من اللاتينية وهي كلمة جرمانوس ومعناها نسيب وجعلوها هرمانو ودلوا بها على الاخ

ولدى امعان النظر تظهر المشابهة التامة بين كلمة اخ اللاتينية والجرمانية واليونانية والفارسية والهندية ويتبيّن انها كلها من اصل واحد وهذا سنبينهُ في نبذة أُخرى وهذه اللغات كانت اولاً لهجات من لغة واحدة فتباعدت لاسباب محلية وسياسية وصارت لغات مستقلة ثم تولّد في كلٍّ منها لهجات وتباعدت وصارت لغات وهلمَّ جرًّا

هذا ويليق بنا ان نلتفت قليلاً الى تاريخ اللغة العربية فنقول لما ظهر الاسلام كان العرب قبائل متفرقة ولكل قبيلة منهم لغة او لهجة خاصة بها وكان الاختلاف بين هذه اللهجات قليلاً الاَّ في اطراف البلاد حيث خالطَ العربُ الحبشَ والقبط والروم والنبط وفي بلاد اليمن لان لغة اليمن الحميرية كانت قد صارت بعيدةً عن بقية لغات العرب لاسباب محلية وسياسية. وسبب قلة الاختلاف بين لغات العرب في الحجاز وما جاورها هو كثرة ارتحال العرب واختلاطهم بداعي الغزو والاسر وعكنهم على زيارة البيت الحرام وانشادهم الاشعار التي كانت تحفظ ويسير بها الركبان الى كل الاحياء فتقوم مقام الكتب والجرائد في حفظ اللغة ونشرها . فلو كانت بلادهم خصبة وطرق المعيشة فيها ميسورة وهم قبائل متفرقة لا تجمعهم جامعة الملك ولا الدين لاشتدَّ الفرق بين لهجاتهم حتى صارت لغات متفرقة كما حدث لزنوج افريقية وهنود اميركا . والحميرية نفسها ابتعدت عن العربية واستقلّت بنفسها بسبب استقلال اهلها وقيامهم في المدن واتصالهم بالاحباش وقيام الملك فيهم ازمانًا طويلة

والظاهر ان لهجة قريش كانت اوسع لهجات العرب حين ظهر الاسلام لنزولهم مكة المشرفة وتوليهم سدانة الكعبة فلما نزل القرآن بلغة قريش انتشر التمدن العربي بها فتغلبت على غيرها من اللغات وانضمت قبائل العرب تحت لواء الاسلام وصارت تضيف اليها ما اختصَّ بلغاتها فألفت العربية من مجموع هذه اللغات او اللهجات. والذين دونوا العربية تحرَّوا في تدوينهم الخالص منها بقدر استطاعتهم ولهذا تجد فيها اسماء كثيرة للمسمّى الواحد كما في اسماء السيف والناقة وتجد للكلمة الواحدة معاني شتّى كما في الخال والعجوز وكل ذلك من باب الترجيح كما لا يخفى

ثم اصاب العربية ما اصاب غيرها من اللغات الشهيرة من قبلها كالسنسكريتية واليونانية واللاتينية اي ان العلم انحصر في فئة من الخاصة فحافظت على اللغة وقواعدها وسار الجمهور في طريق التغيير والتبديل والتحريف لقلة انتشار العلوم بينهم ففسدت لغتهم بذلك وباختلاطهم بما جاورهم من الشعوب فصارت اللغة لغتين لغة الكتابة ولغة التكلُّم كما هي الى هذا العهد . فالرومان المتكلمون باللاتينية قام فيهم ملوك وشعراء اعتنوا بتدوين لغة التكلم فكان منها اللسان الطلياني وبقيت اللغة اللاتينية في مقامها العلمي وكذا اليونان دونوا لغة التكلم المشتقة من اللغة اليونانية . فكان منها اللسان الرومي واما نحن المتكلمين بالعربية فلا نزال نهمل لغة التكلم ونتوخى ان نلفيها ونعود الى لغة الكتابة . ويخالفنا في ذلك كثيرون من الافرنج مثل الكونت كرلو دي لندبرج اللغوي الاسوجي واللورد دفرن السياسي الانكليزي وغيرهما ممن يقول ان لا بدَّ من تدوين لغة العامَّة والاعتماد عليها كما دُوِّنت اللغة الرومية والايطالية والمالطية وكما تدوَّن الآن لغات الشعوب الذين لا كتابة عندهم. قال الاوَّل في تقريره في مجمع اللغويين بمدينة ليدن سنة ١٨٨٣ "انهُ لا بدَّ من تدوين اللغة العربية العامية في الكتب اذ ليس المعتبر الاَّ دلالة الالفاظ على معانيها في اصطلاحات المتكلمين بها فان البلاغة المؤثرة في النفوس عند المحاظ هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع قطع النظر عن كونهِ موافقًا لقواعد النحو او الصرف ولهذا جعل من البلاغة العامَّة الشعر الملحون المغنَّى في مصر مجمل زجل وكذلك الشعر الاحمر عند اهل الصعيد والموالي" الخ . وقال اللورد دفرن في التقرير الذي رفعهُ الى وزير الخارجية بانكلترا من جهة مصر "واخال ان التقدُّم (في مصر) ضعيف طالما ان العامَّة تتعلم اللغة العربية الفصيحة حالة كونها لا تتعلم اللغة العربية الدارجة لان نسبة اللغة المصرية الدارجة الى لغة القرآن (الشريف) كنسبة الايطالياني الى اللاتيني"

وقد عرضت هذه المسئلة في المقتطف منذ بضع سنين فكان الرأي العام مخالفًا لتدوين لغة العامَّة فاغفلناها ولاسيَّما لاننا وجدناها تتعرَّض لمسئلة سياسية مهمة لا يمكن للمقتطف ان يخوض فيها . ولا يبعد ان يقوم من اهل الوطن من يُقْدِم على تأليف كتاب طبيٍّ بلغة العامَّة فيفتح الباب للتأليف فيها كما فعل الشاعر بطرس دلي فيني في اللغة الايطالية او تزيد الرغبة في العلوم والمعارف ويقبل ارباب المدارس من تعليم اللغة الفرنسوية والانكليزية ويزيدون اهتمامهم بتعليم العربية فتقوى لغة الكتابة وتضعف لغة التكلم او يحدث امرٌ آخر ليس في الحسبان . والله اعلم وهو مدبر الامور